﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾ [العنكبوت: 12 - 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد الفتنة بالتَّعذيب والقسر شرعوا بالفتنة باللّين والتَّزيين

لمّا ذكر النَّظم الجليل في السّياق أمرَ الفتنة والأذى الذي يلحق المؤمنين؛ بيَّن في هذه الآية صورةً من صورِ الفتنة والأذى، وبيَّن دوامَ المشركين في محاولاتهم لاستمالة المؤمنين ودفعهم إلى الارتداد، فبعد أن خابوا من حمْلِ المسلمين على الكفرِ بالعذاب والأذى والفتنة؛ شرعوا بإثارة الفتنة بالمغالطات، والشَّكِّ بأمر الدّين، فذكرَ سبحانه بعضَ ما قالوه لهم جهلًا بالله وغرورًا[1]، ومن المناسبة أنَّه قد ذكر فيما سلف محاولة الكفّار ردَّ المؤمنين إلى الشِّرك بالقسر والإكراه والأذيَّةِ والوعيدِ، وأردف ذلك بمحاولتِهم ذلك بطريق الرِّفق واللّين والاستمالة، بأن قالوا: لا عليكم بردَّتكم من بأس، فنحن نحتمل تبعات ذنوبكم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلَنَا﴾: (سبل) أصْلٌ يَدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ، والمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهوَ الطَّريقُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِامتِدادِهِ[3]، والسَّبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولةٌ وما وضُح منه، يُذَكَّر ويؤنَّث، وجمعُه: سُبُل[4]، وسَبيلُ اللّهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إليهِ، وجمعُه:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 400، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 219.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 32، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(4) الرّاغب، المفردات: (سبل).

سُبُلٌ[1]، فيُطلَق السَّبيل على المذهب، والطَّريقة في الدّين، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾، أي: طريقتنا في ديننا[2]، والمقصود بالسَّبيل في الآية: طريقتنا وديننا.

2) ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾: (حمل) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِقْلالِ الشَّيْءِ[3]، يقال: حملت الشَّيء على ظهري أَحْمِلُهُ حَمْلًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠﴾ [طه: 100][4]، والحَمْل معنًى واحدٌ اعتُبِر في أشياء كثيرة، فسوّي بين لفظه في فعل، وفُرِّق بين كثير منها في مصادرها، فقيل في الأثقال المحمولة في الظّاهر كالشَّيء المحمول على الظَّهر: حِمْلٌ، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: حَمْلٌ، كالولد في البطن، والماء في السَّحاب، والثَّمرة في الشَّجرة تشبيهًا بحمل المرأة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: 18][5].

3) ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ (ثقل) أصلُ الثِّقْل يُطلق على ضدِّ الخفَّة[6]، فكلُّ ما يترجَّح على ما يوزن به، أو يُقدَّر به؛ يُقال: هو ثَقيل، وأصلُه في الأجسام، ثمَّ يُقال في المعاني، نحو: أَثْقَلَهُ الغَرْمُ والوِزْر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾ [الطّور: 40]، وقال ﷻ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، أي: آثامهم التي تثقلهم، وتثبِّطهم عن الثّواب[7]، والثَّقَلُ: متاعُ المسافر وحَشَمُه، وجمعُه: أثقالٌ، والأثقالُ: الآثام[8]، والمراد به في الآية الكريمة: آثامهم وأوزارهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر النَّظمُ الكريم عن إصرار الكفّار على إضلال المؤمنين وصرفهم عن التَّوحيد، وافتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، فيحكي النَّظم الجليل أنَّ الكافرين قالوا للذين آمنوا: ارجعوا إلى ديننا الذي كنتم عليه، واسلكوا طريقنا، وإن كانت عليكم آثامٌ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 330، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (حمل).
(5) الرّاغب، المفردات: (حمل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).
(7) والرّاغب، المُفردات: (ثقل).
(8) الخليل، العين: (ثقل).

منهجُ الكافرين في دعوتهم التَّضليلُ والافتراءُ والخداعُ

فعلينا تبعتها، فكذَّبهم الله تعالى، وردَّ عليهم بأنَّ الكفرة لا يحملون ذنوب المؤمنين؛ إذا اتَّبعوهم في الكفر يوم القيامة، فلا أحدَ يحمل وزر أحدٍ، ثمَّ أكَّد كونهم كافرين بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فيما قالوا، وفيما وعدوا[1]، ثمَّ أخبر مقسمًا على أنَّ الدُّعاة إلى الكفر والضَّلال يوم القيامة سيحملون أوزارَ أنفسهم مع أوزارِ مَن أضلّوهم من النّاس من غير أن ينقص من أوزار الضّالّين شيئًا، وإنَّهم سوف يُسألون سؤالَ توبيخٍ وتقريع عن كذبهم وإضلالهم النّاس[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

تعدَّدت أنواعُ الأذى والفتن لصدِّ المؤمنين عن دينهم

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ بالواو الاستئنافيَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالجملة مُستأنفة[3]؛ لأنَّها سيقَتْ لبيان نوع آخر من الأذى الذي يلحقه المشركون بالمؤمنين، وهو محاولة فتنة مَن لم يقدروا على فتنته بالأذى والتَّعذيب، فعمدوا إلى إثارة الشَّكِّ والمغالطات لصدِّهم عن الإسلام[4].

دلالةُ التعبير بفعلِ القول ماضيًا:

كثُرت مقولات الكافرين لفتنة أهل الإيمان

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي عن قولهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق هذا القول ووقوعه، وعبَّر بلفظ القول تعبيرًا عن قولهم ذلك المعنى بطرقٍ مختلفة من الألفاظ، تؤدّي ذلك المعنى، فضلًا عمّا فيه من الدَّلالة على التَّصريح والمجاهرة بمطلبهم عن إصرار وتعمُّد، ورغبة في سوق حججهم، كأنَّها أمرٌ صحيح يجب أن تقبله العقول السَّليمة مع أنَّها محض تخرُّصات، ودعوات باطلة.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 353.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 122.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 377.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 219.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

دعـــاةُ الـكـفـرِ وأئـمَّـتُـهُ هم المعهودون من كبراء المشركين

عبَّر النَّظمُ الجليل بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، دون الاسم الصَّريح (الكافرون)؛ لأنَّ المقصود فئةٌ محدَّدة من الكفّار، وليس كلَّ الكفّار، فالموصول دالٌّ على جماعة معهودة معروفة، ولو عبَّر بالاسم (الكافرون)؛ لدلَّ على أنَّ الذي فعل ذلك هو كلُّ من اتَّصف بالكفر، وهذا يخالف الواقع، فدأب القرآن على الدِّقَّة في بيان الفاعل والوصف، كما أنَّ التَّعبيرَ بالموصول يشير إلى أنَّ سبب قولهم ذلك ما تضمَّنته صلة الموصول، وهو الكفر.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الكفر، وصياغته ماضيًا:

رســوخُ الـكـفـر حـتّـى انـقـطـع زمان التَّغيير

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الكفر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على الكفر العقدي، فهم أعرضوا عن دعوة الإسلام، ودعوا المؤمنين إلى اتِّباع سبيلهم بعبادة الأصنام، فضلًا عن أنَّ مساقَ الكلامِ هو لبيان جناياتهم[1]، وجيء به بصيغة الفعل الماضي للدَّلالة على رسوخ الكفر فيهم وتحقُّقه.

معنى (اللّام) في الاسم الموصول:

بـلـوغُ الـقـولِ لـلـمـقـول لـه تحقيقٌ لفتنته واستمالته

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهي هنا دالَّة على التَّبليغ، أي: إنَّ الذين كفروا قالوا مخاطبين المؤمنين تلك المقولة؛ استمالةً لهم إلى الكفر[2]، فاللّام تعبِّر عن بلوغ تلك الدَّعوة إلى المؤمنين، وهي نوعٌ آخر من أنواع الفتنة والأذى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن المؤمنين بالاسم الموصول في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 32.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 32، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 454.

إنَّـمـا أُلـقـي الخطاب بالفتنة لفئةٍ معروفةٍ بسبب إيمانهم

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، دون أن يقول: (للمؤمنين)؛ لأنَّهم قالوا ذلك لجماعة محدَّدة من المؤمنين، ولم يقصدوا بعرض ذلك كلَّ المؤمنين، كما أنَّ الاسم الموصول يشير بصلته إلى علَّة قولهم لهم ذلك، وهو كونُهم آمنوا بالله تعالى، وصدَّقوا دعوة النَّبيِّ ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بالإيمان وصوغه ماضيًا في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تـصـديـقُـهـم بالنُّبوَّة محقَّق ثابت

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الإيمان في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ تعبيرًا عن تصديقهم بدعوة النَّبيِّ ﷺ وما أخبر به من التَّوحيد واليوم الآخر وغيره ممّا تضمَّنته دعوة الإسلام، وقد عبَّر عنه بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على أنَّه إيمان محقَّق راسخ.

موقعُ جملة ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾:

دعـوة الضالين فـارغـةٌ عـن أسباب الاتِّباع

حكى النَّظمُ البليغ ما قاله الكافرون للمؤمنين في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، فالجملة مقول القول[1]، فدعوتهم فارغةٌ عن أسباب الاتِّباع، بل هي مجرَّد طلب المتابعة ووضع وعود زائفة للتَّرغيب بها.

غرضُ الأمر في جملة ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾:

الدَّعوةُ للاجتهاد باتِّباع سبيل الضَّلال

استعمل النَّظمُ الجليل فعل الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ استعمالًا مجازيًّا، فليس المراد منه الإلزام، بل الدَّعوة للتَّضليل والإغراء[2]، ودلَّت صيغةُ الافتعال في الاتِّباع على التَّكلُّف، أي: كلِّفوا أنفسكم، وأجهدوها؛ لاتِّباعنا[3].

بلاغةُ الاستعارة في ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾:

استعار النَّظمُ البليغ الاتِّباع للسُّلوك في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 316.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 18.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 401.

سَبِيلَنَا﴾؛ وذلك أنَّ الاتِّباع يدلُّ على المشي خلف ماشٍ ما، فجعلوا السَّبيل شخصًا يُتَّبع، فأنزلوا المسلك منزلةَ السّالك[1]، فحذفوا السّالك، وأبقوا المسلك، فشبَّهوا متابعة الدّين بمتابعة السّالك، أي: اسلكوا طريقتنا، ففيها الدّين، فالاستعارة تصريحيَّةٌ للتَّصريح بالمشبَّهِ به، وهو السَّبيل المرادُ به السّالك، وهي استعارة تبعيَّة؛ لأنَّه اشتُقَّ من الاتِّباع اتَّبعوا، الذي بمعنى: السُّلوك، فاشتقَّ منه اسلكوا[2].

سبيلُ المؤمنين هـدًى ورشـادٌ، وطريق الكافرين زيغ وضلال

إيثارُ تعديةِ الاتِّباع إلى سبيلِهم دون ضميرِهم:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باتِّباع السَّبيل دون اتِّباعهم أنفسَهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، فلم يقل: (اتَّبعونا)؛ تزكيةً لدعوتهم بأنَّهم لا يدعون إلى أنفسهم، بل لفكرتهم ومعتقدهم، ففيه إغراءٌ يخدع المدعوّين، أي: إنَّكم لا تتَّبعونا كأشخاص، بل تتَّبعون ديننا المتَّصف بالوضوح والبيان.

الإغـراءُ باتِّباعِ السَّبيل دون أهلِهِ تزكيةٌ لصحَّة السَّبيل

دلالةُ التَّعبيرِ بالسَّبيل دون الطريق:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالسَّبيل دون الطَّريق في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على سهولة سلوكه وكثرة سالكيه، أي: اتَّبعوا سبيلنا الواضحَ البَيِّنَ لنا ولغيْرِنا[3]، وأضافوه إليهم للدَّلالة على أنَّ ما هم فيه من غنًى وقوَّة سببُها ديننا واتِّباعنا لآلهتنا.

استمالةُ المؤمنين بادِّعاء كثرةِ السّالكين لطريق الضّالين

معنى (الواو) في قولهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾:

عطف النَّظمُ الجليل تحمُّلَ الخطايا على اتِّباع السَّبيل في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ بالواو للدَّلالة على معيَّة مضمون الجملتين، فالجملتان مترابطتان معًا، وهما بقوَّة

تسويلُ الاتِّباع بادِّعاء تحقُّق الالتزام وتأكيده

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 32، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 454.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 387.
(3) البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 2/ 377.

الرَّبط بين جملتي شرط وجزاء، وذلك لتأكيد الالتزام بين الاتِّباع وتحمُّل الخطايا[1]، فعطفوا صيغةَ الأمر (لنحملْ) على الأمر ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق مجازاتهم، وأنَّه محقَّق بلا شكٍّ[2].

معنى (اللام)، ودلالة الأمر ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ﴾:

أمـرُ الـنَّـفـس أدلُّ على تحقُّق المـضـمـون من الإخبار

عبَّر النَّظمُ الجليل بصيغة الأمر، بلام الأمر الدّاخلة على الفعل المضارع، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، والأمر هنا لأنفسهم، فأمروا أنفسهم بتحمُّل خطايا المؤمنين؛ إغراءً لهم باتِّباعهم[3]، فليس الأمر هنا دالًّا على الطَّلب، بل هو إخبار مؤكَّدٌ؛ وذلك لأنَّ أمر النَّفس آكدُ من الإخبار بأنَّهم سيحملون ذنوبهم؛ لأنَّ صيغة الأمر تدلُّ على الامتثال، فعدلوا عن الإخبار إلى الأمر؛ لأنَّه يدلُّ على تحقيق المضمون، وهو الإيفاء بالحماية[4].

بلاغةُ التمثيل بالحمل في ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ﴾:

التزامُ الكافرين بحمل أعباء أتباعِهم كالتزام حامل أمتعة النّاس

عبَّر النَّظمُ الجليل بحَمل الخطايا في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ على طريقة المجاز التَّمثيليِّ؛ وذلك لبيان حال من يلتزم بتحمُّل أعباء غيره ومشقَّته، فشبَّهه بحال مَن يحمل أمتعة الناس، ويكون ضامنًا لها[5]، وهذا يدلُّ على تأكيد إغرائهم للمؤمنين، وقوَّة فتنتهم لهم بدعوى ضمان المحاسبةِ؛ إن وقعت محاسبة يوم القيامة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخطايا دون الأخطاء:

من كمال الدَّعوة والاستمالة في الفتنة ادِّعاء ضمان جميع الخطايا

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالخطايا دون الأخطاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على التَّكثير؛ لأنَّ الأخطاء جمع قلَّة يدلُّ على أنَّها معدودة، والأنسب لسياق الإغراء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 401.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 19.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.

بحمل الذُّنوب إنَّما يقع بالتَّعبير عن كثرة الخطايا، أي: نحملها عنكم، مهما كثُرتْ.

لطيفة الإضافة في ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾:

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ (الخطايا) إلى ضمير المخاطَبين، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾؛ وذلك للدَّلالة على العموم[1]، أي: نحمل عنكم جميع الذُّنوب المنسوبة إليكم.

معنى (الواو) في ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾:

صدَّر النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ بالواو الاعتراضيَّة، فالجملة معترضةٌ[2]، جيء بها لإبطال قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، فما ذكروا أنَّهم يحملون عنهم الخطايا على وجه العموم، أبطله تعالى بالنَّفي الدّالِّ على العموم؛ ليبيِّن كذبهم وافتراءهم[3].

قطع الطَّريق على دعوة الضَّلال بإعلان كذبهم

معنى (ما) في ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾:

نفى النَّظمُ الجليلُ الجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾، بـ (ما) العاملة عمل ليس[4]، وذلك لجعل النَّفي مؤكَّدًا، فيكون الرَّدُّ بالجملة المنفيَّة المؤكَّدة مكافئًا للجملة المثبتة: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، وفائدته تأكيدُ إبطال قولهم وتكذيبهم؛ ليلجمَ ألسنتهم، ويخرسهم، ويزيل ما علق في أذهان سامعيهم من كلامهم الكاذب[5].

إلجامُ الكافرين بتكذيبهم وإبطال ادِّعائهم

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِحَٰمِلِينَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا

لا يحملُ المرءُ سيِّئاتِ غيرِهِ عنه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 316.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.
(4) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 146.
(5) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 19.

هُم بِحَـٰمِلِينَ﴾، وهو هنا دالٌّ على التَّأكيد؛ لأنَّه داخلٌ على خبر (ما)، فدلَّ على قوَّة انتفاءِ حمْلِهم خطايا غيرهم عنهم، تبييناً لكذبهم.

نكتةُ إيقاع صريح النَّفي على حَمْلِهم الذُّنوبَ:

خـلـطُ الـحـقِّ بالباطل يقتضي تـخـصـيـصَ الـبـاطـل بالتَّكذيب

صرَّح النَّظمُ الجليل بإيقاع النَّفي على حمْلِهم الذُّنوبَ دون الاكتفاء بتكذيبهم الآتي عقيبه في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾، وجملة تكذيبهم بتحمُّل الذُّنوب اعتراضيَّة[1]، والغرض من هذا الاعتراض: الاحتراسُ من تعميم حكم الكذبِ عليهم، حتّى لا يفهم أنَّ تكذيبهم يشمل ما يدلُّ عليه قولهم من التَّصديق بالحساب على الذُّنوب يوم البعث، فهو اعتراضٌ للاحتراس من الجملة اللّاحقة التي تحكم على كذبهم، أي: إنَّ كذبهم كائنٌ في ادِّعائهم حملَ الذُّنوب، لا الحساب على الأعمال.

دلالةُ التَّعبير بصيغة اسم الفاعل في (حاملين):

صـفـةُ حـمْـلِ الـذُّنـوب منفيَّةٌ عـنـهـم نـفـيًـا مؤكَّدًا ثابتًا

عبَّر النَّظمُ الجليل البليغ عن نفي حملهم الذُّنوب بصيغة اسم الفاعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على ثبوت النَّفي، فانتفاء حمْلِهم الذُّنوبَ ثابتٌ، شأنه شأن الحقائق التي لا تتغيَّر.

معنى ﴿مِنْ﴾ في القيد ﴿مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِنْ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم﴾ وهي هنا بيانيَّة[2]، أي: إنَّ المحمول هو من جنس الخطايا.

دلالةُ تكرير ﴿خَطَـٰيَـٰهُم﴾:

تـأكـيـدُ حضور الـخـطـايـا في السّياق لتأكيد كذِبهم بحملها

كرَّر النَّظمُ الجليل ذِكرَ لفظ الخطايا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 316.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 172.

هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم﴾، فلم يقل: (وما هم بحامليها)، فوضع الظّاهر موضعَ المضمر؛ وذلك للاهتمام بالخطايا، فهي مساق الحديث، فكرَّرها بلفظها تنويهًا بها، وتنبيهًا على كذبهم في ادِّعاء حَمْلها عن غيرهم.

معنى ﴿مِّن﴾ في القيد ﴿مِّن شَىْءٍ﴾:

إزالةُ ما علق في الأذهان من دعوة الكافرين بالنَّفي الاستغراقي

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾، وهي مزيدة للتَّأكيد، وأصلُ الكلام: (وما هم حاملين من خطاياهم شيئًا)؛ وفائدتها الدَّلالة على استغراق النَّفي[1]، أي: إنَّهم لا يحملون عنهم أيَّ شيء ممّا يعدُّ خطيئة، مهما صغر، وجيء بهذا الأسلوب الدّالِّ على استغراق النَّفي لنقضِ دعواهم من الأصل وإزالتها من الأذهان[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالشَّيئية في القيد ﴿مِّن شَىْءٍ﴾:

لا يحملون شيئًا ما من خطايا غيرهم عنهم

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ شيء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ وذلك للدَّلالة على العموم في النَّفي؛ لأنَّ تنكير لفظة ﴿شَىْءٍ﴾ في سياق النَّفي يفيد العموم[3]، أي: لن يحملوا عنهم أيَّ شيءٍ يكون خطيئة، أو إثمًا، أو ذنبًا، صغيرًا أو كبيرًا، والتَّعبير بشيء دون غيره فيه مبالغةٌ في النَّفي مع الدَّلالة على الاستغراق، فأيُّ شيءٍ ممّا يقال له: شيءٌ، لا يمكن أن يكون محمولًا عنهم.

بلاغةُ الطباق والجناس بين ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾، ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ﴾:

الجناس والطِّباق تأكيدٌ لمضمون الخطاب والتَّنويه بما كذبوا به

جمع النَّظمُ الجليل بين لفظين من جذر واحد، ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ و﴿بِحَـٰمِلِينَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم﴾، وهو جناس اشتقاقيٌّ، والفائدة الدَّلاليَّة

(1) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 172.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 19.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.

فيه التَّنويه بموضوع كذبهم، وهو حمْلُ الذُّنوب، وفي العبارة جمعٌ بين لفظين متناقضين على طريقة طباق السَّلب، وهما: ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾، و﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾؛ وذلك للتَّعجيل بنقض دعوتهم، ومع ما في ذلك من جماليَّة في التَّركيب بجمع المتوافقات لفظًا في الجناس، والمتناقضات دلالة في الطِّباق تثير الانتباه، فيقع الاهتمام بالمضمون.

علَّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ عمّا قبلها:

التَّصريحُ بلفظ التَّكذيبِ أبينُ في إظهار كذبهم

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لأنَّها بدلُ اشتمال من الجملة قبلها؛ لأنَّ قوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ يدلُّ على تكذيب قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، فهو كذب؛ لأنَّه غيرُ مطابق للواقع[1]، ففُصِلت الجملتان، ولم تُعطفا؛ وذلك لما بينهما من كمال الاتِّصال[2].

غرضُ توكيد الخبر في ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾:

تأكيدُ كذِبهم ضرورةٌ لإزالة أثر كلامهم عمَّن ظنَّ صدقهم

أورد النَّظمُ الجليل الخبرَ في الجملة في قوله جلَّ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ مؤكَّدًا بالجملة الاسميَّة، وباللّام و(إنَّ)؛ وذلك لتأكيد كذبهم، ولأنَّ من سمع مقالتهم قد يظنُّهم صادقين في ادِّعائهم، فجيء بالتَّأكيد لإبطال هذا الظَّنِّ[3].

سرُّ صوغ كذبهم في صيغة اسمِ الفاعل:

صفةُ الكذبِ راسخةٌ في الدُّعاة إلى الكفر

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن كذبهم باسم الفاعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ وذلك لما في الاسم من دلالة على ثبوت المعنى، فهم متَّصفون بالكذب على جهة الرُّسوخ والأصالة، فالكذبُ لا يفارقهم بحال، ولا بمرِّ الزَّمان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220 - 221.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 402.

نكتةُ حذف متعلّق كذبهم:

الـكـاذب يكذب في كـلّ شيء لا سيَّما في وعوده

حذف النَّظمُ الجليل متعلَّقَ الكذب، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فلم يذكر بأيِّ شيءٍ كذبوا، وذلك لدلالة السّياق عليه، فاكتفى به طلبًا للإيجاز، والتَّقدير: (إنَّهم لكاذبون في حمل ذنوب غيرهم عنهم).

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾:

بعزَّةِ الله إنَّهم لا ينجون من ذنوبهم ولا من ذنوب مَن أضلّوه من النّاس

عطف النَّظمُ الجليل حمْلَ الكافرين أثقالهم وأثقال غيرهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ على تكذيبهم في ادِّعاء تحمُّلهم ذنوبَ غيرهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾، وفائدة العطف: أنَّه "بيانٌ لما يستتبعه قولُهم ذلك في الآخرةِ من المضرَّة لأنفسِهم بعد بيانِ عدم منفعتِه لمخاطبيهم أصلًا"[1]، أي: "إنَّهم غيرُ ناجين من حمل تبعات لأقوام آخرين، وهم الأقوامُ الذين أضلّوهم، وسوَّلوا لهم الشِّرك والبهتان على وجه التَّأكيد بحملهم ذلك"[2]، فأفاد العطف أنَّ الأمر عكس ما زعموا من حمْلِهم ذنوبَ غيرهم، بل الحقيقة أنَّهم سيحملون خطايا أنفسهم غير منقوصة، ويحملون معها خطايا مَن أضلّوهم من النّاس[3].

دلالةُ تأكيدِ الجملة في قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾:

إنـكـارُ دعـوةِ الكافرين بتأكيد كذبِهم

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ باللّام الموطِّئة للقسم المحذوف، وبنون التَّوكيد الثَّقيلة، والتَّقدير: (وعزَّتي ليحملنَّ أثقالهم)[4]، والغرض من التَّأكيد الرَّدُّ على إنكارهم الحساب وحمْلِ الخطايا، فإنَّهم إنَّما قالوا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 33.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 221.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 19.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 33.

مقولتهم للمؤمنين لا على سبيل الإيمان بيوم القيامة، بل على سبيل الشَّرط الافتراضي، أي: إن كان هناك حساب؛ فنحن نحمل الذُّنوب عنكم، "وهذا قولُ صناديد قريش: كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن عسى كان ذلك؛ فإنّا نتحمَّل عنكم الإثم"[1]، فردَّ عليهم بتأكيد حمْلِ تلك الذُّنوب؛ ردًّا على تكذيبهم وافترائهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالحمل، وصوغه مضارعًا:

الـذُّنـوبُ تثقل كاهلَ صاحبِها كـالأثـقـال التي تنوء بحاملها

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ الحمل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على حمْلِ تلك الأثقال على الظَّهر[2]، والمراد تشبيه الذَّنب بالحمل بجامع الثِّقل المسبِّب للشَّقاء والعناء، وآثر النَّظمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع للدَّلالة على تصوير الحمل واستجلاب الصّورة والمشهد، كما أنَّه يدلُّ على تجدُّد حمْلِهم الذُّنوب واستمراره.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾:

الـشَّـقـاءُ بـالـعـذاب عن ذنـوب الآخـريـن كـمـعـانـاة من يـحـمـل أمـتـعـةَ الآخرين

عبَّر النَّظمُ الجليل عن الذُّنوب والآثام بالأثقال في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾؛ للإيذانِ بغاية ثقلِها وكونِها فادحةً[3]، ومجازًا عن كونها ذنوبًا عظيمة[4]، فمثَّل حال الذين يحاسبون على ذنوبهم وذنوب غيرهم بحال الذي يحمل متاعه، وهو مثقلٌ به، فيزاد عليه بحمل أمتعةِ أناس آخرين[5]، والجامع الشَّقاء والعناء، فالاستعارة تمثيليَّة؛ إذ شبَّهت حالًا بحالٍ وصورة بصورة.

دلالةُ جمع ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾، وإضافتها إليهم:

ذنـوبُ الكافرين العـظـام كثيرة وفيرة

جمع النَّظمُ الجليل لفظ الأثقال في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 444.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حمل).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 33.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 225.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 221.

﴿أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على كثرتها، وأنَّهم يحملونها كاملةً غير منقوصةٍ، وأضاف تعالى الأثقالَ إلى ضمير الكافرين للدَّلالة على أنَّهم يحملون ذنوب أنفسِهم مع ذنوب غيرهم[1].

علَّةُ ذِكر أثقالهم في: ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾:

صرَّح النَّظمُ الجليل بلفظ أثقالهم في صدر الجملة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾، ولم يُقَلْ: (وليحملنَّ أثقالًا مع أثقالهم)، وهو كافٍ في الدَّلالة عليها؛ وذلك لأنَّه أراد أن يبيِّن "استقلالَ أثقال أنفُسِهم، وأنَّها بَهظَتْهُم، واستَفرغَت جُهدَهُم، ومع ذلك جُعِلت أثقالُ الذين يُضِلّونَهم كالعَلاوَةِ عليها"[2].

ذنوبُهم كافيةٌ في شدَّة العذاب، وألحقَ بها غيرها زيادة في التَّنكيل

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾:

عطف النَّظمُ الجليل الأثقالَ على أثقالهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا﴾، فعطف الأثقال التي كانت بسبب إضلالهم لغيرهم، على الأثقال التي كانت بسبب ضلالهم بأنفسِهم[3]، فدلَّ النَّصُّ على أنَّهم يحملون نوعين من الأثقال؛ الأوَّل الأثقال التي اكتسبوها بأنفسهم، والثّانية أثقال غيرهم بما أضلّوهم.

يحملُ أئمَّةُ الكفرِ نوعين من الذُّنوب، ذنوبهم وذنوب من ضلَّ بسببهم

دلالةُ تنكير ﴿وَأَثۡقَالٗا﴾ وفائدة الجناس:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير عن الأثقال بصيغة التَّنكير، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ ولم يقل: (وأثقال الذين يضلّونهم)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم يحملون بعضَ ذنوب غيرهم، فالتَّنكير هنا يدلُّ على ما دلَّت عليه (مِن) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النحل: 25]، أي: ويحملون بعضَ أوزارِ الذين ضلّوا بسبب

دعاةُ الكفرِ يحملون وِزرَ الإضلال، لا كلَّ ذنوب مَن أضلّوه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 33.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 149.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 11093.

إضلالهم، أي: يحملون وزرَ الإضلال[1]، فالإثمُ الذي يحملونه عن غيرهم ما كان بسببهم، لا كلَّ ذنوب الآخرين.

دلالةُ المعيَّة في قولهم: ﴿مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف ﴿مَّعَ﴾ الدّالِّ على المصاحبة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم يحملون ذنوب غيرهم فضلًا عن ذنوبهم، والمعيَّة هنا صفةٌ للأثقال، أي: يحملون أثقالًا مصاحبةً لأثقالهم[2].

دلالةُ جمع الأثقال والإضافة فيها:

أورد النَّظمُ الجليل لفظَ (الأثقال) جمعًا مضافًا إلى ضميرهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على كثرة ذنوبهم الكبيرة، وفي إعادة لفظها تنويهٌ بجسامة ذنوبِهم وكونها كافيةً في تحقيق العذاب الخالد لهم.

ذنـوبُ الكفّار كـافـيـةٌ في إيرادهم النّار

معنى (الواو) في ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

عطف النَّظمُ الجليلُ السُّؤال عن الافتراء في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ على حمل الذُّنوب في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾[3]، فلمّا بيَّن أنَّهم غيرُ ناجين من حمْلِ ذنبهم في إضلال غيرهم؛ أتبعَ ذلك بأنَّهم مع حمل تلك الذُّنوب، فإنَّهم سيسألون أمام النّاس عن افترائهم؛ فضحًا لهم وتشهيرًا بهم وإظهارًا لكذبهم، وليت عَمري ماذا سيكون جوابُهم وردُّهم، وتضمَّنت الجملةُ تذييلًا جامعًا لكلِّ ما افتراه الإفكُ والتَّضليل[4].

فـضـحُ أئـمَّـةِ الكفرِ وإذلالهم بسـؤالـهـم عن افترائهم

دلالةُ تأكيدِ الجملة في ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ﴾:

أكَّدَ النَّظمُ الكريم الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

سـؤالـهُـم على رؤوس الملَأِ محقَّقٌ مؤكَّد

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 149.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 317.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 317.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 221.

عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ باللّام الموطِّئة للقسم المحذوف، وبنون التَّوكيد الثَّقيلة، والتَّقدير: (وعزَّتي وجلالي ليسألنَّ يوم القيامة)، وجاء بالتَّأكيد؛ لكونهم ينكرون يومَ القيامة، فردَّ بالتَّأكيد على إنكارهم[1].

سرُّ إيثار لفظ السؤال بهيئة المضارع:

ومن السُّؤال ما يحقِّق الازدراء والإذلال

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ السُّؤال، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، والمرادُ به سؤالهم؛ توبيخًا وتقريعًا لهم[2]، وليس المرادُ معرفةَ جوابهم، بل فضْحَهم أمام مَن أضلّوهم، لما في ذلك من خزيٍ وإذلال، وإنَّما عبَّر بالسُّؤال دون غيره وذلك لما يثيره السُّؤال المراد به الإذلال والازدراء والإهانة في القلب من رعب وهلع[3]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّد سؤالِهم، والتَّجدُّد مناسب للتَّأنيب والتَّقريع، فيكرِّر عليهم السُّؤال لتجديد التَّوبيخ والتَّقريع.

توجيهُ بناء لفظ السُّؤال للمفعول:

إضمارُ السّائل إهانةٌ للمسؤول وتأنيب له

بُني لفظُ السُّؤال للمفعول دون الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ للدَّلالة على صدور السُّؤال من أيِّ سائلٍ كان، فالمقصود تأنيبُهم بالسُّؤال ذاته، لا بكونه من سائل معيَّن، وفيه حطٌّ من قدرِهم، وإهانة لهم، فَهُم ليسوا أهلًا ليظهرَ اللّهُ سائلَهم.

نكتةُ التَّقييدِ بالظَّرف ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

يومُ القيامةِ لا يجاب بالكذب، فالسّامع العاقلُ يبادر بالتَّوبة

قيَّد النَّظمُ الجليل السُّؤال بأنَّه كائنٌ يوم القيامة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ إشارةً إلى اليوم الذي هم به مكذِّبون ومستهينون[4]، وفيه إشارة إلى أنَّهم لن يُسألوا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 403.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 225.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 402 - 403.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 403.

في الدُّنيا سؤال الحساب، بل إنَّه محصورٌ بيوم القيامة، وفي هذا القيد إيماءٌ إلى أنَّ السُّؤال سيكون في يوم لا تنفع فيه شفاعة، فهو وعظٌ وترغيبٌ بتعجيل التَّوبة.

معنى (عن) في قوله: ﴿عَمَّا﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (عن) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، وهو هنا دالٌّ على المجاوزة[1]، والمجاوزة هنا تدلُّ على أنَّ افتراءهم أثار سؤالًا انفصل عنه، وابتعد عنه، وذلك أنَّ الافتراء وادِّعاء حقٍّ ممّا يثير لذاته وغرابته أن يُسأل عنه، ويُتحقَّق منه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما):

كـلُّ افـتراءٍ افـتروه سيقع سؤال عنه أمام الخلائق

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الافتراء بالاسم الموصول دون الصَّريح، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، فلم يقل: (عن افترائهم)؛ وذلك لما في (ما) الموصولة من دلالة على العموم والإبهام، فيكون السُّؤال متناولًا لكلِّ ما افتروه، وفي الإبهام تفخيمٌ لشأن افترائهم، فهو افتراءٌ كبير.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الكون ماضيًا:

الافـتراءُ صفةٌ راسـخـة في أخـلاق الـدُّعـاة إلى الكفر

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الكينونة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، دون أن يقول: (عمّا يفترون)؛ للإشارة إلى أنَّهم فعلوا ذلك بغاية الرَّغبة[2]، وذلك لكون الفعل راسخًا فيهم، وكأنَّه خلَّة فيهم وسجيَّةٌ وطبع، فالافتراء موجود فيهم، مرافقٌ لهم في كلِّ أوقاتهم بحيثُ لا يُتصوَّر لهم وجود من غيرِه، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى إصرارهم عليه واستمرارهم فيه.

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 20/ 139.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 403.

دلالةُ التَّعبيرِ بالافتراء ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ مادَّة وصيغة:

تعمُّدُ اختلاق الكذبِ فعلٌ يزاوله أئمَّةُ الكفر على وجه الدَّوام

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالافتراء في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ لِما فيه من دلالة على اختلاق الكذب، فهو تعبيرٌ عن قصدهم إحداثَ ذلك الكذب، فهم يتعمَّدونه، فالافتراء هو اختلاق الكذب المتعمَّد، وعبَّر عن افترائهم بالمضارع للدَّلالة على أنَّه متجدِّدٌ متكرِّرٌ مستمرٌّ[1]، والتَّعبير بصيغة الافتعال يدلُّ على أنَّهم تعمَّدوا الكذبَ، وقصدوه، وذلك لِعلمهم بصدق النَّبيِّ ﷺ[2].

بلاغةُ التذييلِ بجملة الفاصلة:

المؤاخذةُ واقعةٌ محقَّقةٌ عن كلِّ افترائهم وإضلالهم للنّاس

ذيَّلَ النَّظمُ البليغ في رأس الآية بالجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ لمؤاخذتهم بجميع ما اختلقوهُ من الافتراء والكذب لتضليل النّاس، فلفظ الافتراءِ دالٌّ على كلِّ ما حاولوا به إضلالَ النّاس من الوعود والتَّرغيب بكلِّ ما هو زائفٌ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاتِّباع والتقليد:

الاتِّباع اقتفاءُ أثر سابقٍ، والتَّقليدُ أخصُّ منه وأشدُّ التزامًا بمتبوع

الاتِّباع: من (تبع): وهو أصلٌ يدلُّ على التُّلوِّ والقَفْو، يقال: تبعتُ فلانًا؛ إذا تلوتُهُ، واتبعته، وأتبعته؛ إذا لحقته، واتَّبعه؛ إذا مَشى خَلْفه، ويقال للظِّلِّ: تابعٌ؛ لأنَّه تابع أبدًا للشَّخص، والتَّبَعُ قَوائِمُ الدّابَّةِ، وسُمّيَتْ؛ لِأنَّهُ يَتْبَعُ بَعْضُها بَعْضًا، والتَّبيع: ولدُ البقرة؛ إذا اتَّبع أمَّه، والتَّبيع: النَّصير؛ لأنَّه يتبعُهُ: نصره، وتبعه في كذا؛ إذا وافَقه عليه[4]، فالاتِّباع يُطلق على من لحق غيره، واقتفى أثره؛

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الرّي الجامع: 20/ 139.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 403.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 221.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).

ولذلك يطلق على القرن الذي بعد الصَّحابة (التابعين)؛ لأنَّهم اقتفَوا أثر السّابقين، وساروا على طريقتهم، أمّا التَّقليدُ؛ فأصله من القلادَة التي في العنق، وقَلَّدْتُ المرأةَ، فَتَقَلَّدَتْ هي، ومنه التَّقليد في الدّين، وتَقليدُ الوُلّاةِ الأعمالَ، وتَقْليدُ البَدَنةِ، أن يُعلَّقَ في عنقها شيءٌ؛ ليُعلمَ أنَّها هدي[1]، وقَلَّد إمامًا في الدّين، أي: تعلَّق به، واتَّبعه، ولزمه، وكأنَّه قلَّده أمرَ نفسه[2]، فالتَّقليد يدلُّ على الاعتماد على غيره في تبيين الأمرِ، وتفويض الأمر له، أمّا الاتِّباع؛ فهو اقتفاء السّيرة والأثر، فالتَّقليد أخصُّ من الاتِّباع؛ لأنَّ الاتِّباعَ سيرُ خلفَ متقدِّمٍ، أمّا التَّقليد؛ فمن القلادة في العنق، ففيه إلزامٌ وتتبُّعٌ أشدُّ.

السَّبيلُ والطريق:

السَّبيلُ: طريقٌ فيه سهولة، وجمعه سُبُلٌ، ويُستعمل لكلِّ ما يُتوصَّل به إلى شيء آخر، خيرًا كان أو شرًّا، قال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النَّحل: 125][3]، فلمّا كان السَّبيل يُطلق على كلِّ ما يُتوصَّل به؛ أُطلق على الأعمال التي تكون موصلةً للّه تعالى، كالدَّعوة والقتال وغيرهما، وأغلب استعماله في الخير، وأمّا الطَّريق؛ فهو لا يقتضي السُّهولةَ، ولا يكاد يُراد به الخير إلّا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلِّصه لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][4]، وقد حكى النَّظمُ الجليل في الآية إطلاقَهم لفظَ السَّبيل على طريقتهم، وذلك ترغيبٌ لمن يعرضون عليهم دينهم بأنَّه سهلُ السُّلوكِ، وقد كثُر سالكوه، فهو سبيلٌ واضح بيِّنٌ.

الطَّريق عامٌّ، والسَّبيل ما أوصل لما يراد منه من الطُّرق

الثِّقل والوزر والإصر:

أصلُ الثِّقل يُطلق على ضدِّ الخفَّة[5]، فالثِّقل والخفَّة متقابلان،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قلد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قلد).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(4) العسكري، الفروق، ص: 313.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).

فكلُّ ما يترجَّح على ما يوزن به، أو يُقدَّر به يُقال: هو ثَقيل، وأصلُه في الأجسام، ثمَّ يُقال في المعاني، نحو: أثْقَلَهُ الغَرْم والوِزْر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾ [الطُّور: 40][1]، والثَّقَلُ: متاعُ المسافرِ وحَشَمُهُ، وجمعُه: أثقالٌ، والأثقالُ: الآثام[2]، والمراد به في الآية الكريمة: آثامهم وأوزارهم، وأمّا الوِزر؛ فمن (وزر)، وهو الثِّقَلُ في الشَّيْءِ، والوِزْرُ: حِمْلُ الرَّجُلِ؛ إذا بَسَطَ ثَوْبَهُ، فَجَعَلَ فيهِ المَتاعَ، وحَمَلَهُ، ولِذَلِكَ سُمّيَ الذَّنْبُ وِزْرًا[3]، وأصله في كَلامِ العَرَبِ الجَبَلُ الَّذي يُلْتَجَأُ إليه، وهو الحِمْلُ الثَّقيلُ، والوِزْرُ: الذَّنْبُ لِثِقَلِهِ[4]، فسُمّي الذَّنب وزرًا تشبيهًا بالجبل في ثقله؛ لأنَّه يثقل صاحبه[5]، فالوِزر: هو الثَّقيل من الأحمال، التي تشابه في ثقلها الجبال، وعبَّر في الآية بالأثقال؛ لتشمل كلَّ ذنوبهم، وذلك لإيماء الوِزر إلى الكبير من الذُّنوب.

الثِّقل صفة معنويَّة ضدُّ الخفَّة، والوزر هو الحِمل الثَّقيل

الافتراء والكذب:

الكذبُ: عدمُ مطابقة الخبرِ للواقع، أو لاعتقاد المخبرِ لهما على خلاف في ذلك، والافتراء: أخصُّ منه؛ لأنَّه كذِبُ المرءِ في حقِّ غيره بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب، فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسه، ولذا يقال لمن قال: (فعلت كذا، ولم أفعل كذا) غير صادقٍ: هو كاذب، ولا يقال: هو مفترٍ، وقال سبحانه حكاية عن الكفار: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [سبأ: 8]، لزعمهم أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه الله سبحانه مع نسبته إليه[6]، والافتراء: افتعال من الفري، وهو أقبح الكذب،

الكذبُ الإخبارُ بخلاف الواقع، والافتراء الإخبار بما لا يرتضيه المكذوب عنه

(1) والرّاغب، المُفردات: (ثقل).
(2) الخليل، العين: (ثقل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وزر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وزر).
(5) السّمين، عمدة الحفاظ: (وزر).
(6) العسكريّ، الفروق، ص: 449 - 450.

وهو الكذب المتعمَّد[1]، والافتراءُ هو العَظيمُ مِنَ الكَذِب، يُقالُ لِمَن عَمِلَ عملًا، فبالغَ فيهِ: إنَّه ليَفري الفَريَ، يعني: ليقطعَ الأمرَ العجيبَ[2]، فعبَّر في الآية بالكذب أوَّلًا؛ للدَّلالة على أنَّهم يعلمون أنَّ قولهم يخالف الواقع، وعبَّر بالافتراء ثانيًا لكونهم اختلقوا الكذب بأن ادَّعوا ما ليس لهم بحقٍّ، ولأنَّهم تعمَّدوا الكذب، ولأنَّ كذبهم هذا من أعظم الكذب.

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: (فري).

(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»